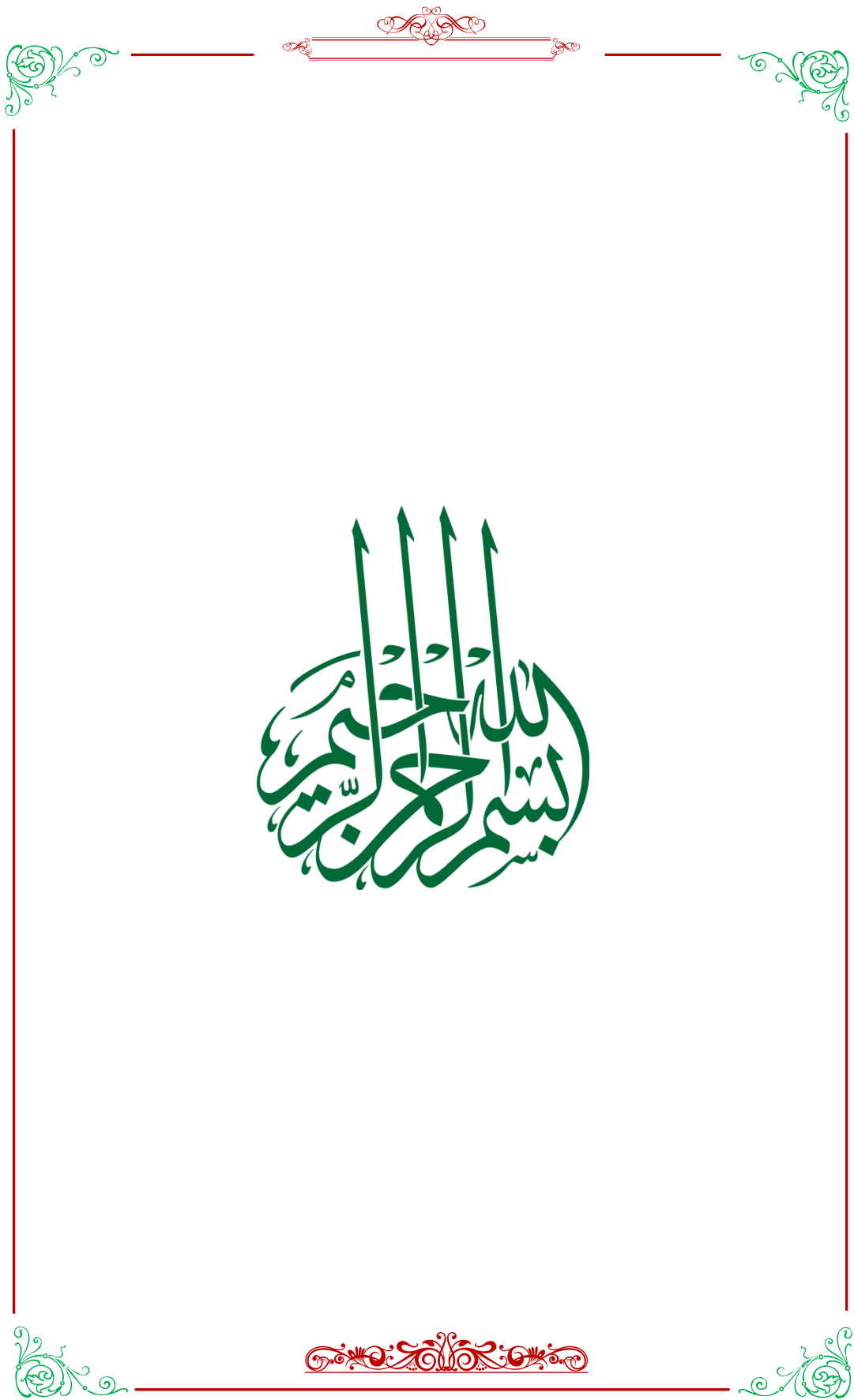


شرح منظومة أسباب انشراح الصدر

نظم وشرح

مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ ابْنِ طَوْقٍ الْمُرِّيَّ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

- | | | |
|---|------|--|
| حَمْدًا لِرَبِّي شَارِحَ الصُّدُورِ | (١) | بِفَضْلِهِ مُيسِّرِ الْأُمُورِ |
| ثُمَّ صَلَاةً وَسَلَامًا لَا يُعَدُّ | (٢) | عَلَى الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى خَيْرَ مَعَدِّ |
| وَبَعْدُ فَاِنْشِرَاحُ صَدْرِ الْعَبْدِ | (٣) | عَوْنٌ لَهُ عَلَى بُلُوغِ الْقَصْدِ |
| وَذِي لَالٍ مِّنْ كَلَامٍ قَيِّمٍ | (٤) | دَبَّجَهُ يَرَاعَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ ^(١) |
| فِي ذِكْرِ أَسْبَابِ انْشِرَاحِ الصَّدرِ | (٥) | فَاعْدُدْ مَعِيَ مِنْ وَاحِدٍ لِّعَشْرِ |
| أَعْظَمَها التَّوْحِيدُ وَهُوَ كُلَّمَا | (٦) | كَانَ أَتَمَّ كُنْتَ أَعْلَى مَغْنَمَا |
| وَنُورُ قَلْبِ الْعَبْدِ بِالْإِيمَانِ | (٧) | ^٣ وَالْعِلْمُ بِالسُّنَّةِ وَالْقُرْآنِ |
| وَالْحُبُّ لِلَّهِ بِكُلِّ قَلْبِهِ | (٨) | وَمَنْ أَحَبَّ غَيْرَهُ عُدَّ بِهِ |
| وَكَثْرَةُ الذِّكْرِ بِكُلِّ مَوْطِنٍ | (٩) | ^٦ وَالْبَذْلُ وَالنَّفْعُ بِكُلِّ مُمَكِّنٍ |
| شَجَاعَةٌ، ^٨ وَسَلُّ دَاءِ الْقَلْبِ | (١٠) | مِنْ حَسَدٍ وَغَفْلَةٍ وَعُجْبٍ |
| وَتَرْكُنَا كُلِّ فُضُولٍ كَنَظَرٍ | (١١) | ^{١٠} وَالْعَاشِرُ اتِّبَاعُنَا خَيْرَ الْبَشَرِ |
| يَا رَبَّنَا اشْرَحْ لِلْهُدَى صُدُورَنَا | (١٢) | أَصْلِحْ قُلُوبَنَا وَأَتِمِّمْ نُورَنَا |
| وَاعْفِرْ لَنَا وَكُنْ لَنَا يَا رَبَّنَا | (١٣) | إِنْ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ لَنَا فَمَنْ لَّنَا! |
| وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمَامُ نَظْمِي | (١٤) | وَبِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ خَتَمِي |





الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ^(١).

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ انشراح الصدر منحة إلهية عظيمة، وَمِنَّةٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلِيلَةُ كَرِيمَةٍ، وقد امتن الله بذلك على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]؛ والمقصود بانشراح الصدر: ارتياحه وطمأننته، وزوال المنغصات والمكدرات عنه، وبقاؤه سعيداً في حياة طيبة كريمة.

وإذا أكرم الله عبده بانشراح الصدر تحققت له مصالحه الدينية والدنيوية، وكان ذلك معيناً له على نيل مقاصده، وتحصيل مطالبه؛ ولهذا لما أمر الله نبيه موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون لدعوته وتحذيره من مغبة طغيانه؛ توجه موسى عليه السلام إلى الله تعالى بالدعاء فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ٢٥ ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ ٢٦ [طه: ٢٥-٢٦] فانشراح صدر العبد خير معين له على تحقيق مصالحه ومقاصده.

وإذا ضاق صدر العبد تعطلت مصالحه، وتعسرت مطالبه، ولم ينشط قلبه لطاعة، ولم يقدر على عمل، ولم يزل منتقلاً من غمٍّ إلى غمٍّ، ومن همٍّ إلى همٍّ.

وانشراح الصدر هداية من الله تعالى يهدي بها من شاء من عبادِهِ، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا

(١) أصل هذه الأوراق لقاء علمي نظَّمه مركز النُّبُل لقراءة واستشراح «منظومة أسباب انشراح الصدر» كان في ليلة الجمعة الخامسة عشر من شهر ربيع الأول عام ١٤٤٨ هـ، وقد اطلع الشارح على هذه الأوراق قبل نشرها، فراجعها وأعاد صياغة مواضع يسيرة منها بما يناسب الكتاب المقروء. (رابط الشرح المسموع) (رابط الشرح على اليوتيوب) (رابط آخر للشرح على اليوتيوب).

يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴿[الأنعام: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

فانشراح الصدر لا ينال إلا بتوفيق من الله وحده؛ لذا كان ينبغي لمن أراد انشراح الصدر أن يطلبه من الله سبحانه وتعالى، فيجتهد في سؤال الله أن يشرح صدره، ويسر أمره، ويكتبه في عباده السعداء في الدنيا والآخرة، نسأل الله أن يشرح صدورنا، وأن ييسر أمورنا، وأن يكتبنا في عباده السعداء في الدنيا والآخرة.

وَيُتَّبَعُ ذَلِكَ ببذل الأسباب المؤدية إلى هذه الغاية، وقد عقد ابن القيم رحمه الله تعالى في «زاد المعاد» فصلاً ذكر فيه عشرة أسباب يُنال بها انشراح الصدر، وهي التي عقدها في هذه الآيات:



قال وفقه الله:

«حَمْدًا لِّرَبِّي شَارِحِ الصُّدُورِ بِفَضْلِهِ مُيسِّرِ الْأُمُورِ»
«ثُمَّ صَلَاةً وَسَلَامًا لَا يُعَدُّ عَلَى الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى خَيْرٌ مَّعَدُّ»

ابتدأ بالبسملة، وبحمد الله الذي شرح الصدور بفضلِهِ وَيَسِّرِ الْأُمُورِ، وقد أشعر في أول نظمه بمقصوده في قوله: «شَارِحِ الصُّدُورِ»، ثم ثنى بالصلاة والسلام بلا عدٍّ ولا إحصاء على خير مَعَدُّ بنِ عدنان نبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم.

والابتداء بالبسملة والحمدلة والصلاة والسلام على نبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم هو من آداب التصنيف.

ثم تخلص إلى مقصوده فقال:

«وَبَعْدُ فَأَنْشِرَاحُ صَدْرِ الْعَبْدِ عَوْنٌ لَهُ عَلَى بُلُوغِ الْقَصْدِ»:

انشراح الصدر من أعظم ما يعين العبد على بلوغ مقاصده، وتحصيل مطالبه، بخلاف ضيق الصدر؛ فإنه يُعطل الإنسان عن مصالحة، فيتفرق عليه قلبه، وتتشنى عزائمه، وإذا استحكَم ضيق الصدر لم يُتَنَفَّع معه بشيءٍ من أمر الدنيا ولا أمر الآخرة؛ لذا فطالب العلم ينبغي أن يحرص على هذه الأسباب التي توصله إلى انشراح الصدر؛ فإنه إذا انشراح صدره أورثه ذلك قوةً يقتدر بها على طلب العلم وتحصيله، وكذلك الساعي في هداية الخلق ينبغي أن يحرص على انشراح الصدر؛ فإنه إذا انشراح صدره أورثه ذلك قوةً يقتدر بها على نشر العلم وهداية الخلق، وقل مثل ذلك في كل ساعٍ لتحصيل مصلحة دينية أو دنيوية.

قال:

«وَذِي لَّالٍ مِّنْ كَلَامٍ قَيِّمٍ دَبَّجَهُ يَرَاعَةُ ابْنِ الْقَيِّمِ»

قوله: «وَذِي»: إشارة إلى أسباب انشراح الصدر التي سيأتي ذكرها.

قوله: «لَّالٍ»: اللالئ، واحدها لؤلؤة، وهي الدرّة المعروفة.

قوله: «مِّنْ كَلَامٍ قَيِّمٍ»: أي مستقيم.

قوله: «دَبَّجَهُ»: زَيَّنَهُ.

قوله: «يَرَاعَةُ ابْنِ الْقَيِّمِ»: اليراعة هي القصبه التي يُكتب بها.

قال:

«فِي ذِكْرِ أَسْبَابِ انْشِرَاحِ الصَّدْرِ فَاعْدُدْ مَعِيَ مِنْ وَاحِدٍ لِّعَشْرِ»:

عقد ابن القيم رحمه الله في كتاب «زاد المعاد في هدي خير العباد» فصلاً ذكر فيه عشرة

أسبابٍ لانشراح الصدر.

قال:

«أَعْظَمُهَا التَّوْحِيدُ وَهُوَ كَلَّمَا كَانَ أَتَمَّ كُنْتَ أَعْلَى مَغْنَمًا»:

أعظم أسباب انشراح الصدر: توحيد الله، وإخلاص الدين له، وهو الغاية التي خلق الله الخلق من أجلها، وأوجدهم لتحقيقها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وكلما كان العبد أعظم تحقيقاً للتوحيد، وتعلماً له، وعنايةً به، ورعايةً لحقوقه وواجباته، وبعداً عن نواقضه ونواقصه؛ كان أعظم حظاً في انشراح صدره، وراحة قلبه، وطمأنينة نفسه، وسعادته في الدنيا والآخرة.

والقلب إنما خلق لتوحيد الله والإخبات له، فإذا أخرج عن الغاية التي خلق من أجلها اضطرب، ودخل عليه من الهموم والغموم والمكدرات بحسب بعده عن توحيد الله وإخلاص الدين له.

قال ابن القيم رحمه الله: «فَأَعْظَمُ أَسْبَابِ انْشِرَاحِ الصَّدْرِ التَّوْحِيدُ، وَعَلَى حَسَبِ كَمَالِهِ وَقُوَّتِهِ وَزِيَادَتِهِ يَكُونُ انْشِرَاحُ صَدْرِ صَاحِبِهِ»^(١).

ثم قال:

«وَنُورُ قَلْبِ الْعَبْدِ بِالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ بِالسُّنَّةِ وَالْقُرْآنِ»:

السبب الثاني: النور الذي يقذفه الله في قلب العبد، قال ابن القيم رحمه الله: «وَهُوَ نُورُ الْإِيمَانِ، فَإِنَّهُ يَشْرَحُ الصَّدْرَ وَيُوسِّعُهُ وَيَفْتَحُ الْقَلْبَ، فَإِذَا فَقَدَ هَذَا النُّورَ مِنَ الْقَلْبِ ضَاقَ وَحَرَجَ، وَصَارَ فِي أَضْيَقِ سَجْنٍ وَأَصْعَبِهِ ... فَنَصِيبُ الْعَبْدِ مِنْ انْشِرَاحِ صَدْرِهِ بِحَسَبِ نَصِيبِهِ مِنْ هَذَا النُّورِ»^(٢)، لذا ينبغي للعبد أن يسأل ربه أن يجعله ممن أكرمه الله بنور الإيمان فضلاً منه ونعمة، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾^(٧) فضلاً من الله ونعمةً والله عليمٌ حكيمٌ^(٨) [الحجرات: ٧-٨]، فيسأل ربه من هذا النور.

(١) ينظر: «زاد المعاد» لابن القيم (٢/ ٢٢).

(٢) ينظر: «زاد المعاد» لابن القيم (٢/ ٢٣).

وقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي لِسَانِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي سَمْعِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ خَلْفِي نُورًا، وَمِنْ أَمَامِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ فَوْقِي نُورًا، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا، اللَّهُمَّ اعْطِنِي نُورًا»^(١)؛ وهو في «الصحيحين».

وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بسؤال الله أن يجدد الإيمان في قلوبهم؛ ليزداد نصيبهم من هذا النور والضياء، قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْإِيمَانَ لِيَخْلُقَ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلُقُ الثَّوْبُ الْخَلْقُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»^(٢). يُقال: خَلَقَ الثَّوْبُ يَخْلُقُ - بضم اللام فيهما - إذا بَلِيَ فهو خَلَقٌ - بفتحين - هذا الوجه المُقَدَّم فيها.

السبب الثالث: تحصيل علم الكتاب والسنة كما قال: «وَالْعِلْمُ بِالسُّنَّةِ وَالْقُرْآنِ»: وكيف لا يكون العلم الشرعي سبباً لانشراح الصدر وهو الذي فيه رفعة العبد وسعادته وفلاحه في الدنيا والآخرة؛ ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

فأهل العلم النافع - علم الكتاب والسنة - هم أشرح الناس صدوراً، وأوسعهم قلوباً، وأحسنهم أخلاقاً، وأطيبهم عيشاً، يقطفون من أطايب ثمار العلم وصنوف أزهاره ما يكون فيه بهجتهم وأنسهم وسعادتهم وانشراح صدورهم.

ثم قال:

«وَالْحُبُّ لِلَّهِ بِكُلِّ قَلْبِهِ وَمَنْ أَحَبَّ غَيْرَهُ عُدَّ بِهٍ»:

قوله: «عُدَّ بِهٍ»: بإدغام المثليين في الكلمتين، وهو إدغامٌ جائز في سعة الكلام، وقد قرأ به السوسي، قرأ بالإدغام الكبير في نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]، و﴿وُطِّعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٨٧].

السبب الرابع: محبة الله تعالى، والإقبال عليه، والإنابة إليه، والتنعم بعبادته؛ وذلك أن الطاعة والعبادة راحة القلوب، وأنس النفوس، وقرة العيون، وسعادة الصدور.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٦٣١٦)، ومسلم في «الصحيح» (٧٦٣).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٥) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٤٦٦٨).

قال ابن القيم رحمه الله: «فَلَا شَيْءَ أَشْرَحُ لِصَدْرِ الْعَبْدِ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ أَحْيَانًا: إِنْ كُنْتُ فِي الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ فَإِنِّي إِذَا فِي عَيْشٍ طَيِّبٍ ... وَلِلْمَحَبَّةِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي انْشِرَاحِ الصَّدْرِ، وَطَيِّبِ النَّفْسِ، وَنَعِيمِ الْقَلْبِ، لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مَنْ لَهُ حِسٌّ بِهِ، وَكُلَّمَا كَانَتْ الْمَحَبَّةُ أَقْوَى وَأَشَدَّ كَانَ الصَّدْرُ أَفْسَحَ وَأَشْرَحَ» (١).

وأما الإعراض عن الله، وتعلق القلب بغيره، ومحبة سواه، فمن أعظم أسباب ضيق الصدر، فمن أحبَّ غير الله عُدَّ به، وسُجن قلبه في محبته، فما في الأرض أشقى منه، ولا أكسف بالآ، ولا أنكد عيشًا، ولا أتعَبُ قلبًا، ولا أضيق صدرًا.

قال:

«وَكَثْرَةُ الذِّكْرِ بِكُلِّ مَوْطِنٍ وَالْبَذْلُ وَالنَّفْعُ بِكُلِّ مُمَكِّنٍ»:

السبب الخامس: دوام ذكر الله على كل حال وفي كل موطن؛ فهو من أعظم أسباب انشراح الصدر، وله تأثيرٌ عجيبٌ في حياة القلب واستنارتها، وراحة النفس وطمأنينتها، وزوال الهمِّ والغمِّ، ولا تكشف الكرب ولا تزول الشدائد بمثل ذكر الله، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

قال ابن القيم رحمه الله في «الوابل الصيب»: «إِنَّ لِلذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ الْأَعْمَالِ لَذَةً لَا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلْعَبْدِ مِنْ ثَوَابِهِ إِلَّا اللَّذَةُ الْحَاصِلَةُ لِلذَّاكِرِ وَالنَّعِيمُ الَّذِي يَحْصُلُ لِقَلْبِهِ لَكَفَى بِهِ؛ وَلِهَذَا سُمِّيَتْ مَجَالِسُ الذِّكْرِ رِيَاضَ الْجَنَّةِ، قال مالك بن دينار رحمه الله: مَا تَلَذَّذَ الْمُتَلَذِّذُونَ بِمِثْلِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْأَعْمَالِ أَخْفَ مَوْنَةً مِنْهُ، وَلَا أَعْظَمَ لَذَةً، وَلَا أَكْثَرَ فَرَحَةً وَابْتِهَاجًا لِلْقَلْبِ مِنْهُ» (٢).

فذكر الله عزَّ وجلَّ من استغفار، وتسبيح، وتحميد، وتكبير، وتهليل، وحقول، وتلاوة للقرآن - وهي أفضل الذكر - ونحو ذلك من الأذكار؛ يجلب للذاكر طمأنينة القلب، وحياة

(١) ينظر: «زاد المعاد» لابن القيم (٢/ ٢٤).

(٢) ينظر: «الوابل الصيب» لابن القيم (ص: ١١٠).

الروح، وانشراح الصدر، وزوال ما في القلب من قلق واضطراب، ويكون في القلب بدل ذلك الأنس والفرح والسرور، ونصيبتك من انشراح الصدر على قدر نصيبك من ذكره سبحانه وتعالى.

وقد أمر الله عز وجل بالإكثار من ذكره في آيات كثيرة، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۚ﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢]، وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال سبحانه: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وما ذاك إلا لشدة حاجة العبد إلى الذكر، وافتقاره إليه أعظم افتقار، وعدم استغنائه عنه طرفة عين؛ فهو خير ما شغلت به الأوقات، وصرفت فيه الأنفاس، وأمضيت فيه الساعات، وهو روح القلوب وحياتها، وسبب نمائها وقوتها؛ ولهذا قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨]، قال العلامة ابن سعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «أي: أكثر من ذكر الله وتسبيحه وتحميده والصلاة؛ فإن ذلك يوسع الصدر ويشرحهُ، ويعينك على أمورك» (١).

وضد الذكر الغفلة، وهي ظلمة في القلب، ووحشة في الصدر، ونكد في العيش؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ» (٢). ولو لم نخرج من هذا الدرس إلا بهذه الفائدة؛ وهي أن يكون لك ورد عظيم من ذكر الله تحافظ عليه ولا تخل به ما استطعت؛ لكفى بها فائدة، إذا وفقت لذلك فسترى أثره وبركته - إن شاء الله - في انشراح صدرك، وتيسر أمرك، وحياة قلبك، ونشاطك لطاعة، وإقبالك على الخير.

ثم قال: «وَالْبَذْلُ وَالنَّفْعُ بِكُلِّ مُمَكِّنٍ»:

(١) ينظر: «تفسير السعدي» (ص: ٤٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٦٤٠٧) واللفظ له، ومسلم في «الصحيح» (٧٧٩).

السبب السادس: الإحسان إلى الناس، ونفعهم بكل ممكن من مالٍ أو جاه؛ فإن المحسن الباذل هو أشرح الناس صدرًا، وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا. والبخل الذي ليس فيه موضع للإحسان: هو أضيق الناس صدرًا، وأنكدهم عيشًا، وأعظمهم غمًا وهمًا.

لذلك إذا ضاق صدرك فعليك بالنفع المتعدّي؛ فإن من أعظم ما يشرح الصدر أن تحسن إلى غيرك، وأن تبدل ما تستطيع من النفع، تصدّق بيدك على فقير، أطعم مسكينًا، أدخل السرور على محزون، ابتسم في وجه أخيك، وسّع لأخيك في المجلس وأجلسه بجوارك، زر مريضًا، خفف عن مبتلى، ابحث عمّن نزلت به ضائقة وليكن زوال همّه وتفرّج كربّه على يديك، ثم لا تسئل عما تجده من انشراح الصدر، وطيب النفس، وراحة القلب، انفع من حولك بمالك وجاهك وبدنك؛ فإن ذلك يجلب لك انشراح الصدر في تلك الساعة.

ثم قال:

«شَجَاعَةٌ وَسَلُّ دَاءِ الْقَلْبِ مِنْ حَسَدٍ وَغَفْلَةٍ وَعُجْبٍ»:

السبب السابع: الشجاعة، فللشجاعة أثرٌ عظيم في انشراح الصدر، بخلاف الجبن؛ فإنه يورث صاحبه ضيق الصدر ونكد العيش، فلا فرح للجبان ولا سرور. والشجاعة أثرٌ من آثار قوة الإيمان وحسن الصلة بالله، فكلما زاد إيمان العبد زادت شجاعته وقوي قلبه، وترتب على ذلك انشراح صدره وراحة نفسه.

وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم يتعوّذ بالله من البخل والجبن، ويأمر أصحابه بذلك؛ فالبخل والجبن من أعظم أسباب ضيق الصدر ونكد العيش، وضدّهما - وهو الكرم والشجاعة - من أعظم أسباب انشراح الصدر وانفساحه.

قال: «وَسَلُّ دَاءِ الْقَلْبِ مِنْ حَسَدٍ وَغَفْلَةٍ وَعُجْبٍ»:

السبب الثامن: إخراج داء القلب من الصفات المذمومة التي تؤدي إلى ضيقه وعذابه؛ فإن القلب يمرض كما يمرض البدن، وأمراضه كثيرة، وقد مثل في النظم: بالحسد والغفلة والعجب، فهذه الأمراض وغيرها من أمراض القلوب إذا ابتلي بها العبد أورثته ظلمة الصدر،

وكآبة الحال.

وهنا مسألة مهمة: وهي أن العبد إذا أتى بالأسباب التي تشرح صدره، ولم يُخرج تلك الصفات المذمومة من القلب، لم يحظَ من انشراح صدره بطائل، كما يقول ابن القيم^(١) وغايته أن تكون له مادتان تَعْتَوِرَانِ على قلبه: مادةٌ توجب انشراح الصدر، ومادةٌ توجب ضيقه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما.

مثلاً: هذا رجل حريص على أسباب انشراح الصدر: من طلب علم الكتاب والسنة، والإحسان إلى الناس، ونحو ذلك من الأسباب، لكنه معجبٌ بعمله، يطلب بعمله المحمودة من الخلق، والرفعة في قلوبهم؛ فإن هذه الأمراض تحول بينه وبين انشراح الصدر حتى يزيل هذه الأمراض.

ومن أعظم ما يزيل هذه الأمراض من القلب: تلاوة القرآن بالتدبر؛ فإنه شفاء لما في الصدور: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، فالقرآن مزيلٌ لأمراض القلوب، يُعيد القلب إلى فطرته التي فطر عليها، وينفي عنه دغله وفساده.

ثم قال:

«وَتَرَكْنَا كُلَّ فُضُولٍ كَنَظَرٍ وَالْعَاشِرُ اتَّبَاعُنَا خَيْرَ الْبَشَرِ»:

السبب التاسع: ترك الفضول: من نظر، وكلام، واستماع، وخُلطة، وأكل، ونوم؛ فإن انشغال الإنسان بما لا حاجة إليه من ذلك يعود عليه بالهموم والغموم، ويحول بينه وبين اغتنام وقته فيما فيه سعادته وفلاحه وصلاحه في الدنيا والآخرة، فكم جرَّ الاشتغال بفضول النظر وفضول الكلام ونحو ذلك من الويلات والحسرات؛ لذا ينبغي للمؤمن أن يشغل أوقاته بما فيه خيره وصلاحه في الدنيا والآخرة، وأن ينأى بنفسه عن كل ما لا يجد نفعه في الآخرة.

قوله: «وَالْعَاشِرُ اتَّبَاعُنَا خَيْرَ الْبَشَرِ»:

(١) ينظر: «زاد المعاد» لابن القيم (٢/٢٦).

السبب العاشر: اتباع النبي الكريم صلى الله عليه وسلم؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أكمل الخلق في انشراح الصدر، وقد امتن الله عليه بذلك فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، فأكمل الخلق متابعة له صلى الله عليه وسلم هو أكمل الخلق انشراح صدر، وعلى حسب متابعتة ينال العبد من انشراح صدره، وقرة عينه، ولذة روحه ما ينال. وقل مثل ذلك في وضع الوزر ورفع الذكر المذكور في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ① وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ② الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④ [الشرح: ١-٤]، فهو صلى الله عليه وسلم في ذروة الكمال من شرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر، ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتباعه.

ثم قال:

«يَا رَبَّنَا اشْرَحْ لِلْهُدَى صُدُورَنَا أَصْلِحْ قُلُوبَنَا وَآتِمِّمْ نُورَنَا
وَاغْفِرْ لَنَا وَكُنْ لَنَا يَا رَبَّنَا إِنْ لَمْ تَكُنْ أَنْتَ لَنَا فَمَنْ لَنَا»:

اللهم آمين، في هذا إشارة إلى سبب عظيم من أسباب انشراح الصدر ينبغي أن لا يُغفل عنه، وهو الدعاء؛ فإن القلوب بيد الله عز وجل يقلبها كيف يشاء، وهي طوع تدبيره وتسخيره. وانشراح الصدر وطمأنينة القلب وحياة الروح منحة إلهية، وعطية ربانية، لا تنال إلا بتوفيق من الله، فمن ابتغى ذلك فليجتهد في الدعاء، وليصدق في الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى أن يشرح صدره ويسر أمره، كما دعا موسى عليه السلام فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ⑤ وَيسِّرْ لِي أَمْرِي ⑥ [طه: ٢٥-٢٦]، وكما كان نبينا صلى الله عليه وسلم يكثر الاستعاذة بالله من الهم والحزن، قال أنس رضي الله عنه - كما في «الصحيحين» -: كُنْتُ أَخْذُمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّمَا نَزَلَ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الِهِمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَضَلَعِ الدِّينِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ» ⑦.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٢٨٩٣)، ومسلم في «الصحيح» (٢٧٠٦).

ثم ختم نظمه بحمد الله والصلاة والسلام على نبيه صلى الله عليه وسلم، فقال:
«وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمَامُ نَظْمِي وَبِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ خَتْمِي»:

اللهم اشرح لنا صدورنا، ويسر لنا أمورنا، ربنا أتمم لنا نورنا، واغفر لنا، إنك على كل شيء قدير، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين، اللهم اهدنا ويسر الهدى لنا.
 وقد كان جلُّ الاعتماد في النظم والشرح على شيئين:

أولهما: الفصل الذي عقده ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد في هدي خير العباد» صلى الله عليه وسلم في أسباب انشراح الصدر، وهو في الجزء الثاني منه من الصفحة الثانية والعشرين إلى الصفحة الثالثة والثلاثين.

والآخر: رسالة للشيخ عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر - حفظه الله وأدام نفعه وأجرى الخير على يديه - بعنوان «عشرة أسباب لانشراح الصدر»، تناول فيها الأسباب التي ذكرها ابن القيم بشيء من البسط، فجُلَّ ما ذُكر في هذا الشرح هو من هذين الموضعين، الكلام فيه كلامهما، وليس مني إلا النقل.

هَذَا آخِرُهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَلْبِهِ أَجْمَعِينَ.

